بيغن، مثل بن غوريون، هو الوحيد الذي يمتلك امور السلم والحرب

■■

بيغن : وحدة الارض بين النهر والبحر أهم من التركيبة السكانية

هناك عاملان رئيسيان حديثان على مسرح مفاوضات الشرق الاوسط ، المعلقة منذ الاتفاق الثاني لفك ارتباط القوات في سيناء في ايلول ١٩٧٥ .

العامل الاول : جيمي كارتر ، الجديد في عالم السياسة دون خبرة في السياسة الدولية الذي اصبح رئيس الولايات المتحدة .

والعامل الثاني : المحارب القديم ، مناحيم بيغن الذي لم يتوقع ابدا ان يصبح رئيسا لوزراء اسرائيل ، وفي الوقت الذي لم يقدر بعد الرئيس الاميركي كارتر على استراتيجية اميركية للشرق الاوسط ، فان المفاهيم المكونة سلفا لدى مناحيم بيغن قد تشكلت منذ اربعة عقود . فمنذ ٤٠ سنة تقريباً ، لم يغير بيغن موقفه الاساسي او يعدل معتقداته او يتردد في التزامه واخلاصه تجاه قضية « ارتز يزرايل » (ارض اسرائيل) فالزعيمان لا يمكن ان يكونا اكثر اختلافا في الشخصية والاسلوب وفي التوجهات السياسية التي يأتيان منها . فكل منهما ينطلق من مواقف والتزامات اخلاقية مبدئية ، وحتى طهورية ، ولكن التشابه ينتهي عند هذا الحد .

منذ تولي جيمي كارتر مهامه الزم ادارته بايجاد حل لنزاع الشرق الاوسط ، بدأ كارتر تجربته ضمن نطاق العمل المباشر ، بدعوة قادة اسرائيل ودول المواجهة الى واشنطن . وباشر بهذه العملية منذ كانون الثاني ١٩٧٧ وانتهت بزيارة بيغن في اواخر تموز . وليس هدفي هنا ان ابحث في سياسة كارتر للشرق الاوسط ، توجهها وتخبطاتها ، بل لاحلل اسلوب بيغن ـ دايان وانعكاس مضمون الاسلوب على استراتيجية كارتر . واهمية هذا تكمن في ان مفتاح الحل السلمي يقع بيد اسرائيل . فاسرائيل تحتل اراض مصرية وسورية واردنية . ان اسرائيل واسرائيل وحدها تستطيع ان تتخلى عن حكمها للضفة الغربية وغزة وان تبدأ بعملية حق تقرير المصير للفلسطينيين . وهذا لا يعني ان اسرائيل تملي الاجراءات السياسية للسلام في الشرق الاوسط ، في الواقع ان العكس صحيح . فالمبادرة والارادة ، لمنح اسرائيل سلامها الذي تتوق اليه ، تقتصر على العرب . وليست اسرائيل في موقع التحكم في طبيعة وبنية السلام لان هذا ايضا في ايدي العرب . ولكن لا ـ اسرائيل ولا العرب يمكن ان يتصوروا حقا تسوية للنزاع من دون تدخل امريكي جدي ثابت وذو افق واسع .

وهكذا نكون مرة اخرى على سكة المفاوضات . ولكن هذه المرة ، خطة كيسنجر « الخطوة ـ خطوة » لم تعد تعتبر مفيدة او ضرورية من قبل اسرائيل او العرب ، وادارة كارتر تبدو موافقة على هذا فأسلوب الخطوة ـ خطوة كان بالاصل فكرة اسرائيلية مدعومة من مصر وبالتالي اعتنقها كيسنجر الذي وضع نهاية لحرب ١٩٧٣ من خلال اتفاقيات فك ارتباط القوات . وتلى ذلك اربع سنوات دون وقوع حرب بين اسرائيل والعرب . والان اعتنقت ادارة كارتر مبدأ مؤتمر جنيف كاستراتيجية امريكية في الوساطة لايجاد تسوية شاملة . وهنا مرة اخرى خرج مخطط منهج المفاوضات عن مصر واسرائيل .

ان فكرة « جنيف » عزيزة على قلوب دول المواجهة العربية الرئيسية وخصوصا السادات ، الذي يفضل مؤتمرا اساسيا وشاملا كهذا ، على امل ان ذلك يضمن الانسحاب الاسرائيلي ويصحح الاخطاء التي ارتكبت بحق الفلسطينيين . وكان للسادات تأثيرا وافرا على استراتيجية كارتر . واسرائيل من ناحية اخرى ، تفضل في الحقيقة شكلا اخرا على جنيف ، للوساطة العربية ـ الاسرائيلية ، وتفضل اسلوبا يرتكز على عوامل منهجية وعملية مؤثرة ، اي « طبيعة السلام » .

ولا يعتقد الاسرائيليون ان الوقت قد نضج لتسوية شاملة . ولذا فقد رأينا نشوء الاقتراح الاسرائيلي ـ الاميركي الخاص بجنيف يتكون من « شقين » : بحيث تجري المفاوضات على عدة مستويات لهدف مزدوج :

١ ـ تحقيق تسوية شاملة ، ربما في اطار « جنيف موسع » يشمل مشاركة جميع اطراف النزاع .

٢ ـ انشاء اسلوب مفاوضات جدي وذلك بهدف التفاوض حول الامور الاكثر سرية على امل النجاح في جعل كل شيء في وضع مناسب وبشكل يحوز الرضا ، ويكون الهدف تسوية شاملة وانما التشديد سيكون على عملية المنهاجية .

وفي البحث عن امكانيات اقامة مثل هذا الترتيب ، من الضروري تفهم الاسس التي تبنى عليها سياسة اسرائيل الخارجية ـ وهذا يعني اسلوب بيغن ، واستراتيجية وزير الخارجية موشي دايان . في حين ان مناحيم سيشرف على الطريق الذي يمكن ان يؤدي الى جنيف ـ يكون مستشاره الرئيسي للسياسة الخارجية ، دايان المفاوض الرئيسي لبيغن وصاحب الافكار الخاصة ليس بمحتوى موقف اسرائيل التفاوضي وانما بمنهجيته .

بيغن وبن غوريون

مناحيم بيغن هو اخر ـ وجهاء الجيل الصهيوني القديم المولود في الشتات (الديسبوره) .

وعلى عكس التوقعات فقد استلم بيغن الحكم وكأنه خلق ليكون رجل دولة اكثر مما خلق ليكون مقاتلا . فاسلوبه السياسي الحازم المقرون باتباه شديد للاجراءات الدستورية والقانونية ، شيء لم نعرفه اسرائيل منذ تقاعد بن غوريون في عام ١٩٦٣ . فهو مثل بن غوريون اوتوقراطي ابوي وذو شخصية دينامية جذابة . ويقود كلا من حزبه حيروت والحكومة الائتلافية المؤلفة من كتلة جناح اليمين « الليكود » ، والحزب الديني الوطني والحركة الديمقراطية للتغيير (حزب الوسط الاصلاحي) الذي يرأسه ييغال يادين ، والاحزاب الارثوذكسية على خلافها . اما على الصعيد الشخصي فهو اكثر استرخاء واقل عصبية من بن غوريون ، وهو مهذب ولطيف وصريح خلافا لما كان عليه بن غوريون .

وبيغن مثل بن غوريون ، صهيوني هرتزلي . وتيودور هرتزل هو مؤسس الحركة الصهيونية وكان كاتبا في فيينا في القرن التاسع عشر ، وكان حالما ودون كيشوتيا ، الا ان نظرته للسياسة كانت واقعية . وكان يعتبر ان الصهيونية هي بالاساس حركة سياسية لاستيطان اليهود وان المؤتمر الصهيوني الذي نظمه في ١٨٩٧ هو الاداة لاعلان الهدف اليهودي لاقامة دولة ، (ولا فرق عند هرتزل ان كانت في اوغندا او صهيون) . وهذا الحل السياسي للمشكلة اليهودية يتطلب من القوى العظمى ان تمنح اليهود امتيازا سياسيا على بقعة ارض لكي تصبح دولتهم المستقلة . وهذه الصهيونية السياسية ـ اي التحركات الديبلوماسية مع القوى العظمى لتأسيس دولة يهودية كانت التراث الهرتزلي الذي كان له فاعلية فائقة على تفكير بن غوريون وبيغن .

وهنا تنتهي الصفات المشتركة بين بن غوريون وبيغن . والفجوة الحقيقية بين الاثنين كانت شاسعة . وكان اختلافهم على الاستراتيجية التي بواسطتها سيتحقق الاستقلال اليهودي السياسي الاقليمي ، عميقا . فبن غوريون كان يمثل الاتجاه السائد للفكر السياسي الصهيوني . وكان يطمح مع الرئيس السابق حاييم وايزمن الى تأسيس دولة يسكنها اليهود فقط اذا امكن . وعلى الرغم من ان بن غوريون من اصحاب السيطرة على المناطق فان الصهيونية عمليا كانت تعني له الاستيطان ـ المديني والريفي ـ اليهودي في تلك المناطق الفلسطينية الواقعة تحت الانتداب والتي كان عدد سكانها من العرب ضئيلا . ففي مركزي التجمع اليهودي المديني الرئيسيان وهما القدس وحيفا ، حيث كان السكان مزيجا من العرب واليهود ، كانت السيطرة اليهودية على العرب عدديا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا امرا ممكنا .

ان مثال الصهيونيين العمليين كانت تل ابيب ، تلك المدينة الجديدة ـ واليهودية كليا ، والمستوطنات الزراعية الجماعية والتعاونية . وكانت نظرة بن غوريون والصهاينة الاشتراكيين لهذه المستوطنات الزراعية تقضي بان تبقى مقصورة على اليهود . وكانت فكرتهم هي « الاستيلاء على التربة » ، في المناطق المعدومة او القليلة السكان ، والاستيطان وخلق قوة عاملة يهودية مستقلة في القطاع اليهودي من فلسطين . وكانت النظرة الى ان السكان والسيادة يشكلان عنصرين متغيرين متقاربين . فالسيطرة اليهودية سترسخ على المناطق الخالية من العرب وتكون بذلك مناسبة لاقامة المستوطنات اليهودية ، وان دولة يهودية مستقلة ستقوم على قطعة من فلسطين التاريخية والواقعة تحت الانتداب والتي يقطنها اليهود الان . ولذلك تقيد بن غوريون بمبدأ تقسيم فلسطين (فقد دعم ثلاث مقترحات بريطانية للتقسيم) الى دولتين : عربية ويهودية مميزتين ومنفصلتين . وعندما اعلن اقامة الكومنولث في ١٩٤٢ ، ابدى بن غوريون وضوح قبوله لفكرة « تقسيم فلسطين » .

وحدة الارض :

مناحيم بيغن ، اكثر التلامذة اخلاصا لصهيونية زائف جبوتينسكي التحريفية ، يرى مستقبل وبنية الدولة اليهودية في اطار استراتيجي وايديولوجي وسياسي مختلف . فبالنسبة لبيغن وحسب معتقد الصهيونية التحريفية فان الوحدة الاقليمية والسياسية لفلسطين غير قابلة للتقسيم . وجبوتينسكي نفسه قبل بالحكم البريطاني في فلسطين ما دام الاخير لم يعتنق فكرة تقسيم فلسطين ، فهدف التحريفية الصهيونية هذه كان في نهاية الامر سيطرة السياسة الصهيونية على فلسطين المنتدبة ، والتي كانت حينذاك تشمل شرق الاردن ـ اي اردن اليوم . التحريفية في الواقع ولدت عندما ازيلت شرق الاردن من تحت الانتداب البريطاني الاول على فلسطين .

اما بالنسبة لبيغن ، فمشكلة تركيبة السكان في الدولة اليهودية امر ثانوي مقابل اهمية الارض .

انه يفضل من جانبه غالبية يهودية في كل فلسطين الغربية سابقا ، وفي غياب هذا ، فهو على اي حال يطالب بالوحدة السياسية للارض (عدم قابليتها للتقسيم) الممتدة بين البحر المتوسط ونهر الاردن ، ثم استيطانها من قبل اليهود واخيرا توطيد السيطرة اليهودية والسيادة السياسية على اجزاء فلسطين الغربية التي قسمت بموجب قرار التقسيم في الامم المتحدة ١٩٤٧ الى دولتين منفصلتين ، يهودية وعربية .

ان المضامين السياسية للحل (حل النزاع) وفق شروط بيغن عميقة . فعندما يتحدث بيغن او حكومته عن المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية ، فهذا ينطبق وتطلعاته الى دولة يهودية مطلقة ومستقلة ، مقدر لها ان تفرض سيطرتها على فلسطين التاريخية . فمسألة الاستيطان بالنسبة لبيغن ليست تكتيكية فقط بل استراتيجية واساسية . وفي محاولة فهم قضية الضفة الغربية ، يجب تفهم حقيقة المطالب التحررية (!) الحالية للحكومة الاسرائيلية على يهودا والسامرة . فهذه تحول دون تشكيل دولة فلسطينية .

اسلوب الحكم

عدا عن هذه الفروق الايديولوجية الاساسية ، فان اسلوب بيغن تجاه آلية الحكومة يشبه اسلوب بن غوريون . والصفات المشتركة تشمل (١) السيطرة الكاملة تقريبا على حركات المعنيين واحزابهم السياسية . (٢) معالجة بارعة تستبعد الاشكال الدنيا من النزاعات الداخلية . (٣) منح فعالية ملموسة ونفوذ للمرؤسين السياسيين مقرونة بـ (٤) فرض قيود على ادوار الوزراء ومستشاري الوزارة . ان التردد في الاعتماد على المستشارين نقطة تستحق الذكر بالاخص في حالة بيغن ، فلا يوجد حول بيغن « جهاز المتنفذين » Eminence (Grises (٢) الذي كان حول بن غوريون .

اما بالنسبة لحزب بن غوريون ـ ماباي ، فانه كان فعالا وعمليا وحيويا الى درجة عالية وعدائيا خلال مدة حكمه ، وقويا بما يكفي في نهاية الامر لطرد بن غوريون من الحكم بعد نضال كبير في عام ١٩٦٥ . ان حزب بيغن او كتلته والمسيطر عليه من قبل حزب حيروت (والذي يمثل بالواقع مجموعة ايديولوجية طائفية متعصبة ومتصلبة) لا يوجد شبه بينه وبين ماباي او تكتل العمال خلال فترة حكم ليفي اشكول ، غولدا مائير واسحق رابين . وشركاؤه « الصهيونيين العموميين » انحلوا في حزب ليكود . وهكذا فان حيروت الذي يمثل ١٥ بالمئة من الاصوات ، هو الحزب السائد في الحكومة الائتلافية .

ومن الممكن ملاحظة انحدار « حكومة الحزب » في اسرائيل منذ انتخابات ١٩٧٧ ، والقول ان كتلة العمل (وهي الان ممزقة اربا) وحزب العمل ، كلاهما ينحلان ببطء من جراء الضغط الناتج عن انهيارهما غير المتوقع ، وفقدان السلطة والنزاع المرير بين بيريز ورابين وعدم كفاءتهما وعن الفساد والتفسخ .

ولكن انتصار ليكود بالواقع لم يخلق لحزب حيروت قاعدة انتخابية وسياسية للسلطة على الرغم من تحالفه في الليكود مع الصهيونيين العموميين والجناح اليميني المنشق عن حزب العمل والحزب القومي . كذلك فان حليف ليكود الجديد « الحركة الديمقراطية للتغيير » برئاسة ييغال يادين ليست حزبا سياسيا ولكنها في الغالب حركة احتجاج مؤلفة من مرتدين ومنشقين عن كتلة العمل .

بالواقع ان الحزب الوحيد المتماسك والواضح منطقيا والمندمج في اسرائيل هو الحزب الديني الوطني (المفدال) .

وفي غياب حكومة ائتلاف قوية ، وافتقار ليكود للدعم الاجتماعي الاقتصادي الواسع الذي توفر لحزب العمل ، فان مصادر السلطة الثانوية في اسرائيل هم الاعضاء الرئيسيين في وزارة بيغن وموظفي الدولة الكبار ومستشاري بيغن السياسيين والشخصيين القلائل . لذلك اصبح من الاهمية التعريف بالادوار التي وزعها بيغن على هؤلاء الافراد ومساهمتهم الخاصة في السياسة .

ومن دون شك فان بيغن ، كما كان بن غوريون ، هو الشخص الوحيد الذي يقرر في امور الحرب او السلم في اسرائيل . فهو الذي يصيغ ايديولوجية ليكود (عكس بن غوريون) وهو قائدها الاعلى . ان بيغن رجل ذو قناعات عميقة وقد يقدم بعض التنازلات القليلة (اذا قدم اصلا) في حقل الايديولوجية الصهيونية والقومية وان اعجابه بمعلمه وقائده جبوتينسكي يأتي بالمرتبة الثانية فقط بعد اعجابه بهرتزل . لقد اثر الاثنان على مبدأ بيغن في اليهود

بن غوريون وافق على مقترحات التقسيم